

محاضرة موسيقى قصيدة النثر:

مقدمة :

ينطلق كثير من الدارسين في رفضهم لقصيدة النثر من خوفهم على أصالة القصيدة العربية من هجمة الروح الأوروبية التي أنت على كثير من جوانب حياة الإنسان العربي المعاصر، كما نجد الوزن العروضي في دائرة الضوء، سواء أعلق الأمر بالمدافعين عن الشعر الجديد أو أولئك الذين يرفضونه ويحاولون جهودهم إخراجهم من دائرة الشعر. غير أن المفارقة تكمن في رفض بعض الذين يؤمنون بالتجديد لقصيدة النثر، من أمثال نازك الملائكة في كتابها (قضايا الشعر المعاصر)، الذي انتقدت فيه الماغوط وأمثاله من الذين يكتبون- في نظرها- نثرا يسمونه شعرا.

والغريب أن مثل هذه الأحكام سبق أن سلطت على قصيدة التفعيلة ذاتها التي دعت إليها نازك الملائكة والبياتي والسياب وغيرهم من الذين رأوا أنها نوع من الشعر الذي يحاول الانعتاق من القيود الصارمة للوزن والقافية، ونذكر في هذا السياق ما جرى بين أحمد حجازي والعقاد حين اعترض الثاني على مشاركة الشعراء الشباب الذين ينظمون على التفعيلة في التظاهرات الأدبية الكبيرة، ما دفع حجازي إلى هجائه بقصيدة موزونة على البسيط، وكأنما يبرهن له أن ترك الوزن لا يعني عدم القدرة عليه.

على أن انتقاد القصيدة الجديدة لم يكن من خصومها فقط، بل من بعض روادها أيضا من أمثال جبرا إبراهيم جبرا، ومحمود درويش، وأدونيس، حين نبهوا إلى أن تقييم العمل الأدبي على اختلاف أنواعه من المهم انطلاقه من نصوص ناضجة لا النصوص التي تقلد الأشكال أو تبتدعها من دون رؤية إبداعية حقيقية؛ لهذا وجدنا هؤلاء الرواد ينكرون على المتطفلين الذين يكتبون كلاما يسمونه شعرا تشويهم لقصيدة التفعيلة أو قصيدة النثر.

وننطلق في هذه الدراسة من فكرة أن قصيدة النثر بوصفها واحدة من النماذج الشعرية الجديدة لا تخلو من العناصر الشعرية، ومنها الإيقاع الذي تتلون أشكاله وتتعدد مصادره، من غير أن يكون مشابها لإيقاع القصيدة الخليلية، مشددين على أن الأولى تحتاج إلى قراءة خاصة تحسن الغوص في بنائها المختلفة، وتتمكن من الوقوف على تلك العناصر الشعرية المتوارية خلف البساطة في الشكل والتعبير.

مفهوم الإيقاع عند نقاد قصيدة النثر:

أثير جدل واسع حول مسألة الإيقاع في قصيدة النثر العربية، خصوصا بعد أن سيطر النموذج الموزون لقرون طويلة، وفرض مقياسا للتجنيس، وهو الجدل الذي كان مصدره ما كتبه سوزان برنار في كتابها الشهير عن (قصيدة النثر)، والذي وصلت فيه إلى أن "مفهوم الإيقاع واضح جدا حينما يطبق على الموسيقى، ولكنه يصبح كثير الغموض حينما نطبقه على الشعر وعلى النثر خاصة." [1] هذه الصعوبة في تحديد الإيقاع هي جزء من الصعوبة التي نجدها في تحديد ملامح قصيدة النثر ذاتها كما تؤكد برنار

في مقدمة كتابها بالقول: "إن قصيدة النثر قد أنكرت على نحو تام قوانين علم العروض، ورفضت بإصرار أن تنقاد للتقنين، وتفسر الإرادة الفوضوية الكامنة في أصلها تعدد أشكالها، كما تفسر الصعوبة التي يواجهها المرء في تحديد هويتها ومعالمها:[2]"

وقد اختلفت الآراء حول مسألة الإيقاع ومكوناته وصفاته، والفرق بين إيقاع القصيدة الكلاسيكية والقصيدة الجديدة المعاصرة، ولكن الإجماع يكاد يحدث حول اتساع مجال الإيقاع مقارنة بالوزن، ومن هنا كان السعي إلى بناء موسيقي بأشكال جديدة ومتجددة تحدياً مستمرا عند الشعراء الذين سعوا إلى التجديد ونظروا له، ثم طلبوا من القارئ أن يتخلى عن نظريته الثابتة إلى علاقة الشعر بنمط واحد من الموسيقى هو الوزن والقافية، وأكدوا أن البنية الشعرية "هي بنية شكلية تحاول أن تخلق موسيقاها، أي إيقاعها، بل إن مفهوم الموسيقى الشعرية أوسع بكثير من أن نقزمه بإيقاع أو تنغيم. الإيقاع تكرر دوري لعناصر متناوبة في النص تفصل بينها وقفات زمنية محددة، وليس من الضروري أن تكون هذه الوحدات عروضية تتشكل من بنية صوتية بحتة، لأنه مرتبط بمستويات النص المختلفة، فهو إيقاع نص، نجده في أي مستوى من مستويات البنية النصية.[3]"

ويذهب بعض النقاد إلى التأكيد على عدم وجود صلة حقيقية بين الإيقاع الذي تتبناه قصيدة النثر، وبين الإيقاع الشعري كما يتجسد في الوعي الشعري العربي، هذا ما يراه كمال أبو ديب في قوله: "الحقيقة البسيطة هي أن قصيدة النثر لا أصول لها في الإيقاع المعروف على مستوى تصويري، أي مستوى التحديد الواعي للشعرية عند العرب.[4]"

ويورد أدونيس أمثلة لذلك بقوله: "إيقاع الجملة وعلائق الأصوات والمعاني والصور، وطاقة الكلام الإيحائية والذبول التي تجربها الإحياءات وراءها من الأصداء المتلونة المتعددة. هذه كلها موسيقى وهي مستقلة عن الشكل المنظوم. قد توجد فيه، وقد توجد دونه"[5]، وهو الأمر الذي يراه رضوان القضاة أيضاً في قوله: "التناوب بين البوح والانفعال، أو بين السرد والوصف، بين توتر متن النص وارتخائه، بين الصورة الحسية والصورة الذهنية، بين بنية تركيبية اسمية وأخرى فعلية، إنها عناصر تخلق إيقاع قصيدة النثر الذي يتميز بإمكانية تحديده من خلال سمات محددة تقوم على التقابل والتناوب، أما تلك التي لا تكتسب تلك السمات فستبقي النثر نصاً نثرياً لا قصيدة شعرية[6]".